صوت صدام يؤيد المقاومة ليؤذيها؟

ياسر الزعاترة *

■ سنفترض في هذه السطور ان الشريط المسجل لصدام حسين الذي بثته قناة «الجزيرة» والشريط الآخر الذي بثته قناة «الحياة - آل بي سي» الفضائية حقيقيان، وسنقرأ الأول قراءة نصية دلالية بناء على ذلك.

كنت أقول لبعض الاصدقاء قبل الحرب على العراق ان ما يقوله الرئيس العراقي يشير على نحو واضح الى اعجاب من طرفه بشخصية اسامة بن لادن، وكنت أقول انه لو مد هذا الاخير خيطاً نحو صدام لما وجد غير الترحيب. وقد توافرت اشارات عدة على ذلك الاعجاب لا داعي لاستعادتها هنا.

الرسالة الصوتية تبدي اللون الجديد لصدام حسين، فهنا ثمة خطاب اسلامي واضح لا يتداخل مع اي لون آخر، فهو يبدأ بآية كريمة من القرآن عن المجاهدين والصابرين، ويذكر التاريخ الهجري قبل الميلادي، ثم يتحدث في الجزء الثاني عن رضا الله عز وجل وتجنب غضبه كهدف للتحرك السياسي، وعن الحفاظ على المبادئ كبوصلة وحيدة مهما كانت التضحيات (يحضر هنا مشهد الملا محمد عمر وتضحيته بالسلطة)، ومن ثم التوجه بالحمد والشكر لله في كل الاحوال.

يأخذ الجزء الثاني من الرسالة موقف التبشير بالزمن المقبل، حيث «خلايا المقاومة والجهاد» - لاحظ المصطلح - «التي تشكلت على نطاق واسع». ونلاحظ ايضاً وصف الاعداء بـ«الغزاة الكافرين».

الفقرات التالية كلها تسير على النسق ذاته، حيث الحديث عن المجاهدين في مواجهة الكافرين، ثم بعد ذلك الحديث عن العراق كمحطة للسيطرة على المنطقة، ما يعني حضور الأمة ومصالحها في السياق.

ثمة ملاحظات مهمة لا بد من ان تستوقف المراقب في الرسالة او الخطاب، لعل اهمها غياب اي ذكر للحزبيين او البعثيين او الحرس الجمهوري او فدائيي صدام، ولم ترد سوى اشارة واحدة للقوات المسلحة الباسلة. وفي ذلك تشديد واضح على الخط الجديد ذي اللون الجهادي المستند الى اسس اسلامية لا تشوبها شائبة.

لم ترد كلمة الرفاق البعثية او اليسارية مطلقاً، اللهم إلا في سياق وصف القيادة حين وصفهم بـ«رفاقي واخواني»، كما لم ترد مصطلحات «النضال» او «الكفاح»، وانما الجهاد فقط، ووردت كلمة القتال - وهي قرآنية - في سياق مصطلح «ساحات القتال»، اما اشتقاقات مصطلح الجهاد فوردت احدى عشرة مرة في الخطاب. ولكن، ما هي دلالة هذا التحول في خطاب الرجل؟ ومتى حصل ذلك؟

من الصعب الجزم بأمر كهذا على نحو حاسم، فاللغة الايمانية في برنامج الرئيس العراقي كانت سابقة على الحرب وحكاية «الحملة الايمانية» معروفة في سياق اعادة تأهيل حزب البعث، غير ان من الصعب نفي اي تأثيرات للمعركة وحيثياتها فيه، سيما من زاوية صمود المتطوعين «المجاهدين» العرب في مقابل فرار الآخرين، وإن بدا الامر مفهوماً على نطاق واسع لجهة كراهية النظام والشوق العارم لرحيله.

هي يعني ذلك ان صدام حسين يريد ان يكون بن لادن آخر؟ من الصعب نفي توافر هذا الشوق في وعيه، غير ان عدم ادراكه استحالة ذلك يبدو مساوياً للجنون السياسي. فالمسافة بين الحالين رهيبة، بل ان افضل خدمة يمكن ان يقدمها صدام للمقاومة، ان كان مقتنعاً بجدواها، هي غيابه عن المشهد تماماً، لأن ربطها به سيؤدي الى فقدانها الكثير من التأييد في الشارع، بل ان احتمال عودته وإن بدا مستحيلاً، ربما كان وصفة ناجحة لدفع الناس نحو أحضان المحتلين.

* كاتب من الاردن

أيكون احتلال العراق هزيمة لـ «القاعدة»؟

عمار علي حسن *

■ لم تطأ أقدام الأميركيين والبريطانيين أرض العراق فحسب بل حطمت معها أفكار «تنظيم القاعدة» وتصوراته، وكذلك المطالب التي يسوقها والسلوكيات أو التحركات التي تبدر عنه. فهذا التنظيم الذي ولد من رحم ما يسمى «الجبهة العالمية لقتال اليهود والصليبيين»، أخذ على عاتقه منذ اللحظة الأولى مناهضة الوجود العسكري الأميركي في منطقة الخليج العربي. وطالما ظهر هذا التصور في خطب أسامة بن لادن وكلماته، قبل حدث الحادي عشر من ايلول (سبتمبر)، وأثناء توالي تداعياته، وفي ظل تراكم الحشود العسكرية الأميركية والبريطانية في منطقة الخليج، لتقبض على العراق من زاخو إلى أم قصر.

وتبلورت ملامح هذا التوجه عقب حرب الخليج الثانية، التي انتهت بوجود عسكري أميركي في المنطقة، يستند إلى ذرائع بخطر العراق تارة وإيران تارة أخرى، ويخدم مصالح اقتصادية غربية ترتبط بضمان تدفق النفط، ويصب في استراتيجية أميركية شاملة اتضحت معالمها عقب انهيار الاتحاد السوفياتي السابق بالانفراد بقمة العالم المعاصر، وتوسيع الهوة في مجالي التسلح والنفوذ بين واشنطن ولاحقيها المتعبين في الغرب والشرق، والذين أظهرت المسألة العراقية كم هم عاجزون عن الوقوف في وجه الآلة العسكرية الأميركية الجامحة.

فالعدو الذي احتشدت لمقاومته طاقات «الجهاد الإسلامي» وهو الاتحاد السوفياتي انتهت به الحال إلى الانهيار عقب خروجه الذليل من أفغانستان. وكان من الممكن بعدها أن تنفك عرى التجمع القتالي الذي خلفته حركة هجرة متتالية للشباب العربي إلى أفغانستان، بعضها تم تحت سمع الأنظمة الحاكمة وبصرها وبمباركة من واشنطن وتحت إشرافها، وبعضها تم من خلف ظهر الحكومات، التي أخذت منذ مطلع عقد التسعينات من القرن المنصرم تضيق الخناق على خروج المنضوين تحت ألوية الجماعات الإسلامية الراديكالية، وتمنع الراغبين منهم في العودة من أن يبلغوا هذه الأمنية، بدعوى خطورتهم. لكن التداعيات التي ترتبت على حرب الخليج الثانية، أخذت انتباه «إسلاميو الخارج»، خصوصاً من أطلق عليهم «الأفغان العرب» فاعتقدوا أن صفحة جديدة من «الجهاد» قد فتحت، هذه المرة ضد القطب المنافس للاتحاد السوفياتي المنهار، وهو الولايات المتحدة.

ولم يكن هناك حجة أقوى من رفض أو مناهضة الوجود العسكري الأميركي على أرض الخليج ليسوقها أسامة بن لادن للشباب العربي والمسلم الذي ذهب إلى أفغانستان أو غيرها، حتى يمكن الجماعات والتنظيمات التي أسسها هؤلاء أن تستمر، بعد أن حددت لنفسها وجهة واضحة وهدفاً جديداً. وكانت هذه الحجة من التمكن إلى درجة أن بعض هذه التنظيمات تخلت مرحلياً أو تكتيكياً أو زاوجت بين هدفها الأصلي وهو منازلة الحكومات والأنظمة القائمة وهدفها الجديد وهو قتال الأميركيين.

وتوالت الفتاوى التي تبرر هذا التوجه، والتي دار معظمها حول الوجود العسكري، الذي أدركته هذه التنظيمات على أنه احتلال لأراضي المسلمين وتدنيسهما، وجاءت المسألة العراقية لتراكم عليه يقيناً بهذا. ومن ثم ترجمت تلك الفتاوى إلى تحركات عملية، لتتوالى الأحداث ضد المصالح الأميركية، والمساهمة في حركة التطوع العربي - الإسلامي للقتال إلى جانب العراقيين.

لكن المسألة العراقية جلبت الى منطقة الخليج المزيد من العسكريين الأميركيين. فالحرب التي انتهت بسقوط بغداد في أيدي القوات الأنكلو أميركية في التاسع من نيسان (إبريل) العام ٢٠٠٣، أعقبت إبرام الولايات المتحدة اتفاقية «دفاع مشترك» مع قطر، وإنزال قوات غير مسبوقة بالكويت، ثم احتلال العراق، الأمر الذي يعني وجوداً عسكرياً أميركياً لأجل غير محدد في المنطقة.

وتزامن هذا مع أفول نجم «تنظيم القاعدة» نسبياً بفعل الضربات الأميركية المتلاحقة له، عسكرياً على أرض أفغانستان، وأمنياً وإعلامياً على كل الأراضي، ما يعني إلحاق هزيمة جديدة بهذا التنظيم، الذي كان يحلم بإجبار الولايات المتحدة على سحب قواتها من الخليج العربي، فإذا بالأحوال تنزلق إلى تعزز وجود هذه القوات، بينما يلعق هو جراحه في كهوف أفغانستان وغيرها، من دون أن يفقد الأمل، ما دامت قيادته حية وأيديولوجيته راسخة في أذهان أتباعه، في أن يوقظ يوماً ما «خلاياه النائمة»، ليعود من جديد إلى مطالبة الأميركيين ليس بسحب قواتهم من الخليج فحسب، بل بإنهاء احتلال العراق أيضاً.

* كاتب مصري

يقول المثقف العراقي: عدت الى أهلي وأنا غريب بينهم!

□ عنوان المقال هو بيت من اشعار الألماني هلدرلين، كتبه بعد رحلة لدراسة الحضارة الاغريقية في جبال الأولب في اليونان استغرقت نحو ثلاثة اعوام. عاد الى ألمانيا ليُصاب بالجنون وهو في الثلاثينات من العمر. غاب نور عقله وبقي نور اشعاره يضيء بعض جوانب الحياة، اذ ان الشعر يساوي النور احياناً.

علي عبدالعال *

■ كيان المثقف العراقي الاقتصادي والانساني والابداعي مهدد وفي خطر، وبالتالي يكون وضع الثقافة العراقية الحديثة مرهوناً بأوضاع صانعها. اي ان الخطر يهددها ويحيق بها في هذا المخاض الشاذ والعسير من تاريخ العراق. تدّعي احزابنا التي اشتهرت بالوطنية والتقدمية واليسارية عموماً بأنها الحاضنة الشرعية للثقافة العراقية الجديدة. وكان هناك في العراق مطبوع صدر أواخر الستينات من القرن الماضي يحمل هذا العنوان بالتحديد «الثقافة الجديدة». ومنذ ذلك الوقت وحتى الوقت الحاضر تسمى الثقافة عندنا بـ«الثقافة الجديدة»، ويتبادر الى الذهن سؤال بسيط: اي جديد تعنيه هذه الثقافة؟

فإذا كان العنوان يصلح لأن يكون تقليداً لمطبوعات صدرت في بلدان كانت تنادي بالجديد على الطريقة السوفياتية وهي تعود اليوم لتراثها القديم وجذورها الحقيقية بعد تجربة مريرة دامت اكثر من سبعين عاماً، فالأولى بنا النظر الى واقع ثقافتنا اليوم وغض الطرف قليلاً عن ماضي الستينات.

خرج الحزب الشيوعي العراقي، وهو احد أهم الاحزاب الوطنية، من الفعل السياسي المؤثر داخل العراق أواخر السبعينات إثر الهجمة الشرسة المنظمة التي قادتها اجهزة حزب البعث الحاكم على حليف لها في السلطة كما يليق بأخلاق عصابة قطاع طرق وليس بعملية صراع سياسي شريف. طرد الحزب من ساحته وميدانه وبيئته وحاضنته الاجتماعية، بيد ان جذوره الضاربة في العمق لم تستأصل كلياً من تربة العراق الخصبة. وعندما خرج الحزب الشيوعي بمؤسسته الرسمية ليقود النضال من الخارج، فإنه جر خلفه قطاراً طويلاً من ارثه البشري الثقافي والاكاديمي ومن ثم جوقة الرفاق الاعضاء الاعتياديين.

جرّت ماكينة قطار الحزب الشيوعي خلفها، بما جرّته من قاطرات، قاطرة خاصة جداً كانت محملة بخيرة المثقفين العراقيين. ومن تخلف عن الركب، تسنى له ان يلحق بالقطار «الثوري - المعنوي» الصاعد نحو شمال العراق، وبالتالي شمال الكرة الارضية كما يحتم قانون الفيزياء. فنحن هنا بصدد قانون الجاذبية، لكن بدل السقوط الى الاسفل كما هو معروف، سقطنا الى الاعلى. كان لذلك معنى كبير. فمجرد الاستسلام لمعنى «السقوط سياسياً» كان يعني السقوط كلياً، ثقافياً واجتماعياً واخلاقياً، وهذا ما لا يقبله المثقف العراقي الشريف بأي حال من الاحوال. ثم بقينا نسقط نحو الاعلى، ليس رغبة منا، لكن مطبات السياسة في عالمنا العربي وممرات الحياة الضيقة في مدن الشرق هي التي كانت تجبر الكثير منا على سلوك هذا الدرب الشاق. وكنا نفعل كما يفعل سمك السلمون وهو يشق طريقه الوعر نحو شمال الأرض، ويضحي بحياته في سبيل بلوغه هدفه الاخير، لكن الفارق شاسع بيننا وبين السلمون، اذ يظفر هو نحو موطنه الأم بينما نظفر نحن طفرتنا القوية واحياناً المميتة بعيداً عن ارضنا الأولى.

هذا لا يهم كثيراً، حيث ان العالم غدا ملتصقاً بعضه ببعض بفضل وسائل الاعلام الحديثة، وبقي سمك السلمون على عاداته القديمة، وكذلك بقية الحيوانات الاخرى التي تقودها غرائزها الطبيعية نحو أوطانها الأم. الا نحن بني البشر الذين ننفرد بالطمأنينة الكاذبة كوننا فقدنا خاصية الغريزة أو تنازلنا عنها طواعية لصالح موهبة العقل والتحلي بزينة الحكمة. المهم الآن ان ننظر الى حالنا وحال ثقافتنا وحال مؤسساتنا العلمية والاكاديمية. واذ نجد بعض شيوخ ثقافتنا العراقية من يطيب له شن الحروب الجديدة باسم «المقاومة الشعبية»، وهم انفسهم من تخلوا ووقفوا بوجه هذه المقاومة في أوج عنفوانها وشبابها وحقيقتها مطلع الثمانينات، نجدهم اليوم، وبعد سقوط رمز معارضتهم، يتكئون على عكاز ثوريتهم الهرمة لينفخوا انفاسهم الضعيفة في رماد جمر منطفئ. ليس لدينا «كارلوس» عراقي، وليس لدينا غيفارا عراقي. لكن، لدينا كاسترو عراقي، ولدينا عشرون الف لينين عراقي، ومثل هذا الرقم مضاعفاً من ستالين.

كتب لي صديق، هو شاعر شعبي عراقي معروف ومحبوب ايضاً، هذه العبارة المفزعة: «لقد سقطنا بسقوط صدام حسين»!. وكان يقصد بعفوية مفرطة ان مهمتنا الحياتية انتهت بسقوط النظام العراقي كوننا «معارضة». في هذه الحال يجب على صديقي الشاعر ان يجد له ضالة كي يعارضها، وكي يشتغل ضدها، وكي يكتب من وحي ادمانه على الاضطهاد المزمن. تلك هي بالحق عقدة الشعور بالاضطهاد، وهي عقدة توفر بعض الارباح احياناً، وهي ضالة ينشدها البعض من المثقفين حسب اتجاهات الرياح.

ما الذي يجعل المثقف العراقي يتخبط كل هذا التخبط والاحداث الجارية تتسم بكل هذا الجلاء والوضوح؟ وبين داع للثورة على الأميركيين، وبين مرحب بهم، وبين شغّال سري وبين ساكت، وبين قابض وبين لاهث، بين كل هذا الرهط العجيب ضاع موقف المثقف النبيل، موقف المثقف الوطني الاصيل. الواقع السياسي المعقد والملغوم هو بالضبط ما يجعل المعادلة الثقافية العراقية تبدو على هذا القدر من القباحة والتشويه والظلام. غياب المؤسسات الثقافية في الداخل وفي الخارج. الاحزاب العراقية هي ذاتها اذا كانت في الداخل او في الخارج، فهي لا تعنى بالشأن الثقافي الا بمقدار ما يوفر لها الفائدة والدعاية والكسب على حساب الشأن الابداعي الحقيقي وقوانين التطور الاجتماعي الطبيعية.

ادت الظروف الشائكة والمعقدة التي افرزتها الهجمة الشرسة لـ«قبضايات» حزب البعث العراقي وعلى رأسهم صدام حسين على القوى الوطنية العراقية الى نشوء حالة من الفصام بين المثقف العراقي وبيئته الاجتماعية بغض النظر في ما اذا كان هذا المثقف ينتمي الى تيار سياسي معين ام غير منتم. فالسلخ والتجريد الذاتي الذي تعرض له المثقف العراقي تساوى او يكاد تقريباً بين الجهتين. واذ تنعم المثقف المنفي ببعض اشكال الحرية المزيفة بعيداً عن مجتمعه الاصلي فإن عقله الباطن ونتاجه الابداعي وشغله الشاغل ظلت تعاني مرارة الانفصال عن البيئة الشرعية والحاضنة الطبيعية والرغبة الشديدة بالعودة اليها بعد تصليحها سياسياً، وبين الحرية الجديدة في المجتمعات الغربية، تلك التي لا تمت بصلة جذرية لمكونه الابداعي. بينما ظل المثقف داخل الاسوار «الوطنية» الحديد التي يمكن ان يشيدها نظام همجي متخلف كالنظام القبلي البعثي، يرزح تحت اعباء بعيدة كل البعد عن التفكير بانتاج ادب ابداعي وانساني يعيد ويؤسس للكائن البشري حضوره الطبيعي ويصنع علامات رقيه وتطوره اللاحق. حيث كان تكريس روح القائد، على رغم بشاعته وشكله الاستفزازي، وحروبه وسكناته وهمساته هي المرتع والمنفذ والمتنفس الضيق والوحيد امام هذا الانسان المسكين الذي يمتلك مشقة الكتابة او الرسم، او يبتلي في شكل او في آخر بهم من هموم الابداع. ربما كانت تلك قسمة عادلة بين المثقف المنفي والآخر المقيم في ارض الجحيم. ليس لأحد فضل على احد، فكل واحد دفع الثمن الباهظ على طريقته.

نعود الى قطار الحزب الشيوعي المحمل بالمثقفين العراقيين، وربما بخيرة اولئك المثقفين. يصح القول الذي تفاخر به القيادات الشيوعية في العراق وهي تخوض الصراع من منافيها بأن خيرة المثقفين العراقيين ركبوا قطار الحزب بطريقة تدعو الى الظن بأن الجميع كانوا منضوين تحت هذه اليافطة السياسية. وقليل من التدقيق بهذه الحالة يبين العكس. فإذا استثنينا شاعراً معروفاً مثل سعدي يوسف لا يبقى للحزب الشيوعي شاعر بهذه المكانة الاعلامية. وإذ حسبنا الجواهري وعبدالوهاب البياتي وبلند الحيدري ومظفر النواب، فإن الكفة لا تميل الى الحزب الشيوعي، لكن توظيف المعادلة الثقافية كان لا شك في مصلحة الحزب كون جميع الشعراء الكبار منهم والصغار - أرفض رفضاً قاطعاً هذه التصنيفات واعتبر ان كل الشعراء الحقيقيين كبار حتى لو لم نكن نعرفهم - كان يوحدهم موقف واضح هو رفض ديكتاتورية صدام حسين ونظامه الاجرامي الدموي المتخلف. ألقت قاطرة الحزب حمولتها في بيروت، وكانت حمولة قيمة وكبيرة لعبت دوراً مميزاً في حياة النضال العربي، خصوصاً الفلسطيني، سيذكره التاريخ اذا كان للعرب والفلسطينيين منهم من سيهتم بالتاريخ. وفي احدى المناسبات النضالية التي جرت لاحياء الذكرى السنوية لتأسيس الحزب الشيوعي العراقي في بيروت مطلع الثمانينات احتشد لاحياء هذه المناسبة حشد من المثقفين العرب، فضلاً عن العراقيين، ما لم يكن ليتوقعه المرء. كان ادونيس - الذي قال امام الجمهور المحتشد في تلك الليلة انه يحنث في هذه اللحظة وعداً قطعه على نفسه منذ ثلاثة عشر عاماً وهو عدم قراءة الشعر في مناسبة سياسية - ومحمود درويش اللذان لا يلتقيان الا اذا التقى الخطان المستقيمان باذن الله. وكان، اذا لم تخن الذاكرة، الشاعر معين بسيسو وعريف الحفلة كان الشاعر اللبناني شوقي بزيع. من دون مبالغة كان في تلك القاعة من المثقفين العرب والاسماء اللامعة «ما يضيق به وطن كامل» على حد تعبير شوقي بزيع. هكذا كان صيت المعارضة العراقية مطلع الثمانينات ضد عصابة الهمج من الذين كانوا يحكمون في بغداد من دون شرعية وطنية. فضلاً عن هذا كله كانت الصحافة الفلسطينية التي رفدها القلم العراقي المبدع والجريء والمتخم بالهم القومي العربي قد جسدت هويتها بفضح همجية النظام، حتى ان مجلة «الثورة الفلسطينية» الناطق الرسمي باسم منظمة «فتح» كبرى المنظمات الفلسطينية تصدر عددها بغلاف يحمل صورتي الرئيس العراقي احمد حسن البكر ونائبه صدام حسين وعليهما عنوان كبير «القتلة»!.

كل هذا كان متوافراً بيد المعارضة العراقية وعلى رأسها الحزب الشيوعي العراقي. لماذا لم يستثمر هذا الوضع الذي اكتسب شرعيته الجماهيرية والشعبية بين صفوف الشعب العربي لتأسيس معارضة عراقية حقيقية، على الاقل بين نخبة المثقفين؟ ولماذا الانتظار حتى تأتي ماكينة ضخ الدولار الاميركي عبر الأداة العراقية لتلتهم هذا الموقف برمته، بحيث يعزف الشاعر ادونيس عن نشر نص شعري طويل يدين النظام العراقي لينشره بعد ربع قرن، مباشرة عقب سقوط تمثال الطاغية ٩ نيسان (ابريل) ٢٠٠٣. حتى ان النص على جماله ودقة صنعته افتقد الى الصدقية بعد افتقاده الى عنصر الزمان والتوقيت. من هو المسؤول الحقيقي عن هذا الوضع المؤلم والشاذ، أليس هو المعارضة العراقية التقدمية ذاتها؟ كان الشارع الثقافي العربي يقف بقلبه الحار والصادق، عاصمة الثقافة العربية الحرة بيروت، مع ضحايا نظام حزب البعث العراقي من المثقفين والفنانين والمناضلين على مختلف اصنافهم. كانت تلك بديهة وسليقة ثورية وانسانية واضحة السمات في سلوك المثقف العربي وبالتالي الشارع العربي بسواده الاعظم. ماذا حدث كي تنقلب تلك المعادلة الصحيحة رأساً على عقب والضحايا هم الضحايا، بينما ازداد وجه النظام العراقي قباحة بالصعود الاجرامي لعصابة مجهولة الماضي وضارية السلوك مثلها الثالوث الأمي صدام التكريتي - طه الجزراوي - عزت الدوري؟ انه سلوك المعارضة العراقية الذي هدم صرح التضامن العربي الحقيقي ممثلاً بخيرة رموزه ونبضه الحار من المناضلين والمثقفين العرب، وليس السفراء ورجال المهمات الخاصة من استخبارات الدول العربية الحليفة للنظام العراقي. وكان ذلك الانهيار الذي ألحق الصدع بهذا التضامن قد برز قبل اعلان العراق شن الحرب على الجارة ايران، وقبل بدأ ضخ الدولار الى جيوب المرتزقة الصغار والصحافة الصفراء التي أسسها أولئك المرتزقة اواسط الثمانينات لخدمة اهداف النظام الصدامي التخريبية.

سلوك الهيمنة الذي يحاول كل حزب من الاحزاب العراقية، القائدة منها او المعارضة، فرضه على المثقف العراقي هو الذي ادى ويؤدي باستمرار الى تشتيت دور هذا المثقف وتدمير طاقاته الابداعية وجعل صورته باهتة في المعترك السياسي. وبالطبع تتفاوت اشكال هذه الهيمنة ودرجاتها ونوعيتها بين هذا الحزب او ذاك، لكن جوهر النتيجة يبقى متماثلاً.

* كاتب عراقي.

> كتب لي صديق، هو شاعر شعبي عراقي معروف ومحبوب ايضاً، هذه العبارة المفزعة: «لقد سقطنا بسقوط صدام حسين»!. وكان يقصد بعفوية مفرطة ان مهمتنا الحياتية انتهت بسقوط النظام العراقي كوننا «معارضة». في هذه الحال يجب على صديقي الشاعر ان يجد له ضالة كي يعارضها، وكي يشتغل ضدها، وكي يكتب من وحي ادمانه على الاضطهاد المزمن. تلك هي بالحق عقدة الشعور بالاضطهاد، وهي عقدة توفر بعض الارباح احياناً، وهي ضالة ينشدها البعض من المثقفين حسب اتجاهات الرياح. فما الذي يجعل المثقف العراقي يتخبط كل هذا التخبط والاحداث الجارية تتسم بكل هذا الجلاء والوضوح؟ بين داع للثورة على الأميركيين، وبين مرحب بهم، وبين شغّال سري وبين ساكت.

ألف وجه ألف عالم

«أدونيس»: عندما رثى شيللي صديقه جون كيتس

■ تعتبر قصيدة «أدونيس» واحدة من اجمل وآخر القصائد التي كتبها الشاعر الإنكليزي برسي بيشي شيللي قبل رحيله المفجع والمبكر في العام ١٨٢٢. والغريب انه كتبها كمرثية وتحية لذكرى صديقه الشاعر الإنكليزي الرومانطيقي الآخر جون كيتس، قبل ذلك بعام واحد، علماً بأن رحيل كيتس كان بدوره مبكراً ومفجعاً - حتى وإن لم تكن فجيعته في حقيقة الأمر مطابقة لما كان يعتقده شيللي، الذي لا بد من القول هنا انه تصور، عن خطأ، ان صديقه وزميله مات قهراً بسبب مقال هجا قصيدته الأخيرة «اندميون» ونشر في مجلة «كوارتلي». ومعنى هذا ان شيللي كتب هذه القصيدة انطلاقاً من سوء تفاهم. ولكن هل هذا يهم حقاً؟

إن شيللي يكتب في تقديمه لـ«أدونيس»: «كانت شاعرية الراحل الكريم الذي أتوجه الآن إلى روحه بأبياتي الهزيلة هذه، حساسة بقدر ما كانت جميلة أخاذة. ولا غرو ان تتلف الزهرة الصغيرة وهي لا تزال في برعمها أينما وجدت الديدان! لقد ترك النقد الهمجي الذي نشر في مجلة «كوارتلي» عن قصيدته «اندميون» أشنع الأثر في نفسه الهشة. وكان من نتائج غمه الشديد ان انفجر شريان افضى الى إصابته بالسل. واشتد عليه الداء فلم يفد تقدير النقاد المبررة ولا اعترافهم بصفاء موهبته شيئاً في شفاء الجراح التي أورثه إياها ايذاء الحمقى، لأنهما جاءا بعد فوات الأوان». والحقيقة ان كيتس كان مصاباً بالسل من قبل، وكان موته محتّماً... لكن شيللي، كما يبدو، لم يكن يعرف ذلك. ومن هنا هذا العنف في هذه القصيدة التي يشبه فيها شيللي النقاد الذين هاجموا كيتس و«قتلوه» بذلك الثور الذي قتل ادونيس. غير ان هذه الحقيقة لا تنقص، بالطبع، من قوة هذه القصيدة التي يستعيد فيها شيللي اسطورة ادونيس وفينوس القديمة ليوظفها من جديد، من اجل رثاء كيتس، ولكن ايضاً - وخصوصاً - من اجل خوض معركة ضد النقاد وضد فساد العقل كان على شيللي ان يخوضها على اية حال...

● «لهفي على ادونيس، فقد مات! لنبكه ولو ان دموعنا لن تذيب الجليد الذي طوّق رأسه. وإن رأسه لعزيز. وأنت ايتها الساعة الحزينة، يا من اختارك القضاء من بين السنوات جميعاً لتندبي خطبنا، ايقظي أترابك اللواتي غمرهن النسيان وقصّي عليهن مصابك. لهنّ قولي: لقد مات ادونيس معي ولسوف يصبح اسمه صدى يتردد وموته قبساً الى الأبد يضيء، حتى يجسر المستقبل على نسيان الماضي». بهذه العبارات الحزينة التي تضعنا مباشرة في قلب اسطورة ادونيس، يفتتح شيللي قصيدته التي يعود ليختمها بقوله: «ها قد هبط علي الروح الجبار الذي ناديته في فريضي، وزورق روحي يطفو بعيداً من شاطئ الحياة، بعيداً من زحمة الأنام الجازعين الذين لم يخبروا قط انواء المحيط. لقد انشقت الأرض الكبيرة وانفطرت السماء المستديرة، وأن أسبح في غلس رهيب، بعيداً، بعيداً! على حين توهجت روح ادونيس كما يتوهج النجم الثاقب، ففتق نورها الحجب امامي في أغوار السماء، وأضاءت عليّ من دار الخالدين». إذاً، بين تلك البداية وهذه الخاتمة، يوجه شيللي حديثه الى ربة الإلهام اورانيا، داعياً إياها الى بكاء موت الشاعر الكبير. هذا الشاعر الذي من حول جثمانه مسجى ميتاً تأتي الأحلام والرغبات والآلام واللذة والمحيط الشاحب والرياح الضارية والصباح والربيع، تأتي لتبكي فيما يلاحظ شيللي غياب اورانيا فيلومها صارخاً بها: «أيتها الأم الكبيرة، اين كنت حين قضى ادونيس؟ اين كنت حين استلقى ولدك وقد احماه ذلك السهم الذي يطير في الظلام؟ اين كانت اورانيا الحزينة حين مات ادونيس؟ لقد جلست في فردوسها بين الأصدقاء الخاشعة وانسدل على عينيها نقاب، على حين طفق صدى من تلك الأصدقاء يجدد لها الأغاني الذابلة التي زيّن بها ادونيس شبح الموت القادم وحجبه كما تزين اكاليل الزهور الجثمان الراقد تحتها وتحجب بجمالها بشاعته». ويتابع شيللي موجهاً خطابه الى اورانيا: «ألا أبكي على ادونيس، فقد مات! استيقظي ايتها الأم الثكلى لتندبيه. ولكن علام النحيب؟ كفكفي دموعك السخينة من مآقيك الملتهبة، ولينم قلبك المضطرب كما نام قلبه في صمت وإذعان. فلقد نزح ادونيس عنا الى حيث ينزح الحجى والجمال، ولا تحسبي ان القبر سيردّه الى عالم الأحياء فالقبر بحبه متيم، يستمع الى اناشيده الصامتة ويسخر من دموعنا».

● إن شيللي في هذه القصيدة، التي لم يستسغها تي اس إليوت كناقد كثيراً، إذ رآها، مثل بقية اشعار شيللي «ترجح كفة المعرفة والعقلانية على الأحاسيس» على رغم انتسابها الى الشعر الرومانطيقي، يندب صديقه الشاعر، من بعدما فعل ذلك كل من بايرون ومور. وهو لكي يبكي على صديقه، يلجأ الى نص هادئ ينساب من دون صخب كبير، من اول القصيدة الى آخرها، اللهم إلا حين ينطلق شيللي في هجوم عنيف ضد اولئك الذين تسببوا في موت الشاعر». ولكن ما إن يهدأ غضب الشاعر ضد هؤلاء، حتى تستعيد القصيدة هدوءها وانسيابيتها، بحيث اننا، في الحقيقة، إذا ما جردناها من تلك الأبيات، ستجدنا امام قصيدة رقراقة عن موت ادونيس، لا علاقة لها بكيتس وموته من قريب او من بعيد. بل ان القصيدة هنا تتحول، بشكل سحري، الى نشيد للفرح. ذلك ان ادونيس، كما يقول لنا الشاعر لم يمت في حقيقة الأمر، بل هو خالد بين الخالدين «ليس لنا ان نجزع إذاً لأن الحبيب طار بعيداً من هذه الطيور الجارحة التي تنعق قرب الأرض. هو نائم بين الموتى الصابرين إن كانوا نياماً، وهو بينهم صاح إن كانوا مستيقظين. ولن يستطيع احد ان يرقى الى حيث حلقت روحه الآن. من التراب جاء وإلى التراب يعود، ولكن روحه ترجع الى نافورة اللهب التي نبعت منها، فهي قطعة من الكائن الأبدي، ولا بد لها ان تشتعل على مدى الزمن، وأن تثبت امام عوامل التغير، فهي من النور الأولي ولا سبيل الى إخمادها، على حين يخمد الجسد - بيت الشهوات - ويتحرر صاحبه من عمره «الأرضي». «صمتاً صمتاً! إنه لم يمت. إنه لا ينام. لقد صحا من حلم الحياة. إنما نحن هم التائهون في رؤى مضطربة، المشتغلون بصراع الأطياف لا نفيد من ورائه شيئاً (...) لقد طار الى حيث لا يدركه ظل الليل الذي يكسونا (...) انه يحيا. إنه يصحو. إنما مات الموت ولم يمت ادونيس، فلا تبكوا عليه» (من ترجمة الدكتور لويس عوض للقصيدة في العام ١٩٤٤).

● مثل جون كيتس، وكذلك في ايطاليا حيث مات هذا الأخير، قضى برسي بيشي شيللي عن عمر يناهز الثلاثين عاماً، إذ غرقت به وبرفاقه مركب كانا يريدان تجوالاً بحرياً قرب الساحل الإيطالي على متنها. وشيللي المولود العام ١٧٩٢، ليموت في العام ١٨٢٢، بعد اقل من عام من نشر قصيدته التي يرثي بها كيتس، كان واحداً من أبرز الشعراء الرومانطيقيين الإنكليز، الى جانب كيتس نفسه وبايرون وكولردج ووودزورث. اما إنتاج شيللي فإنه يتراوح بين الشعر والمسرح، اضافة الى مساعدته زوجته ماري في كتابة روايتها الأشهر «فرانكشتاين». ومن أعمال شيللي التي بقيت علامة اساسية على حياته القصيرة والمثمرة في الآن عينه «بروميثيوس طليقاً» و«سنسي» و«ساحرة الأطلس»، و«انتصار الحياة» الذي حاول فيه شيللي ان يكتب نوعاً من التاريخ الروحي للغرب، اضافة الى «ثورة الإسلام» وغيرها من اعمال تاريخية - روحية - رومانطيقية طبعته وطبعت ذكراه.

ابراهيم العريس

برسي بيشي شيللي (١٧٩٢ - ١٨٢٢)